البنية الحجاجية في الآية القرآنية

دراسة تحليلية

زياد سند المطيري

الحجاج لغة:

الحجاج في اللغة العربية مصدر للفعل "حاجج" وجاء في لسان العرب: حاججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. والحجة الدليل والبرهان والمنازعة. والتحاج هو التخاصم. والرجل المحاجج هو الرجل الجدل. والمحاججة: المغالبة بإظهار الحج. فالأصل (ح ج ج) جاء بدلالة متقاربة منها: (القصد، والدليل والبرهان، والعَظَمَة، والمنازعة والمغالبة والخصام، والإصلاح، والنكوص) فحَجَّه: قَصدهُ وحججتُ فلاناً: اعتمدتهُ، وحَاجَّهُ محَاجَّةً: غَلَبهُ، والحجةُ: الدليل والبرهان، أو الوجه الذي كون به الظفر عند الخصومة. حاجَّه محاجَّةً وحِجَاجاً: نازعه الحجَّةَ. والتَحَاجُّ التَّخَاصُم. وحَجَّ الشَّجَّةَ حَجًّا: إذا سبَرَها بالمِيلِ؛ ليعالجه، أو يصلحها. والحِجاجُ: العظم المستدير حول العين، وحجاجُ الشمسِ: حاجبُها وهو قرنها. وحجاج الجبلِ: جانباه، وكبشٌ حَجْحَجْ: عظيم. والحَجْحَجَةُ: النكوصُ، حَجْحَجَ الرجلُ: أي نَكَصَ[1].

وذكر ابن فارس في مقاييس اللغة: الحاء والجيم أصولٌ أربعةٌ: الأول: القصد، وكل قَصْدٍ حجٌّ. وقد اختص بقصد بيت الله الحرام للنُّسُك. ومن الباب المحَجَّة، وهي جَادَّة الطريق. وممكن أن تكون الحُجَّة مشتقة من هذا؛ لأنها تُقْصَد، أو بها يُقْصَد الحقُّ المطلوب. يُقال: حاججت فلاناً فَحَجَجْتُه أي غلبتُه بالحُجَّةِ وذلك الظَّفرُ يكون عند الخصومة. والثاني: الحِجَّة وهي السَّنَة. ويمكن أن يُجمع هذا إلى الأصل الأول، لأن الحجَّ في السنة لا يكون إلا مرَّةً واحدة؛ فكأن العام سُمِّي بما فيه من الحَجِّ حِجَّة. والثالث: الحِجَاجُ، وهو العظم المستدير حَولَ العَين. يُقال: للعظيمِ الحِجَاجِ أَحَجُّ، وجمع الحِجَاج أحِجَّة. والرابع: الحَجْحَجَة وهي النكوص. يُقال: حَمَلوا عَلينا ثم حَجْحَجُوا"[2].

وبهذا نجد أن غالب المعاني المعجمية للأصل (حجج) تشير إلى معاني القوة والغلبة، فقصد الحج رمزًا لاجتماع المسلمين، وفي اجتماعهم تكمن قوتهم وغلبتهم.

---

1 - ابن منظور ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور ت 711هـ: لسان العرب، دار صادر – بيروت، الثالثة - 1414هـ، مادة. ح ج ج، ج2 ص228-229

2 - ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكَريّا : مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، الأولى، 1423 هـ 2002م ، ج2 ص:30-31. مادة (ح ج ج)

ومن جهة أخرى فإنه يشير إلى معنى المغالبة والمكافحة، فتأدية فرائض الحج وسننه تحتاج إلى ضبط النفس ومغالبتها. كما أن القرآن الكريم قد أشار إلى مثل هذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾[1]؛ أي "جاهدهم بالشدة والعنف، لا بالملاينة والمداراة لتكسب ودّهم ومحبتهم، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر، وذكّرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلها، وذلك منتهى الجهاد الذي لا يقادر قدره"[2].

والحِجَاجُ: هو حصن العين ودرعها الحامي لها، و"حَجَجْتُ الإنسانَ: ضربتُ حِجَاجَ عينَهُ؛ وهو ما يحيط بها"[3]. والنكوص في هذا السياق يقارب هذا المعنى؛ فهو الغلبة إذا قصدنا به القدرة على حسن التخلص في المواقف الحرجة.

وفي اللغات الأجنبية ما يقارب هذه المعاني، ففي اللغة الفرنسية نجد لفظة (**Argumentation**) تشير إلى عدة معاني متقاربة، أبرزها –حسب قاموس (روب ير)- ما يلي:

- القيام باستعمال الحجج.
- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.
- فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

وفي القاموس نفسه نجد (**Argumenter**) تشير إلى الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج أو عرض وجهة نظر معارضة مصاحبة بحجج[4].

---

[1] سورة الفرقان: آية 52

[2] أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ: تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الأولى، 1365 هـ - 1946 م، ج19 ص26

3 - محمد بن عمر بن عبد العزيز إبراهيم الأندلسي (أبو بكر)، كتاب الأفعال، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2002، ط: 1، ص: 244.

[4] - محمد السيد سليمان العبد (دكتور) النص الحجاجي العربي- دراسة في وسائل الحجاج، الحجاج مفهومه ومجالاته، 2010م، ج3 ص31-32.

الحِجاج اصطلاحا:

عرف الحجاج عند العرب بألفاظ مختلفة منها: الجدل، والجدال، والمجادلة، وبهذا فهو ليس نتاج الدراسات الغربية، وليس لهم براءة اختراع فيه، والحجاج عند العرب علم كغيره من علوم اللغة والبلاغة؛ ولهم إسهامات وبصمات في مفهوم الحجاج كما هو الحال في باقي علوم اللغة.

يرى الدكتور محمد العبد أن الحجاج متجذر في الخطاب العربي، فضلًا عن دوره المؤثر في الحياة: العقدية، والسياسية، في البيئة العربية الإسلامية، وحتى الخطاب العلمي البلاغي لم يخلُ من اعتماده على البنية الحجاجية، ومثاله ما نراه في دفاع عبد القاهر الجرجاني عن إعجاز القرآن بإقناع الناس بفكرة النظم، مما طبع دلائله بطبيعة حجاجية واضحة[1].

ومن أبرز من كان لهم إسهام واضح في الحجاج من العلماء العرب الأقدمين: ابن وهب (تـ337) وحازم القرطاجني (تـ684)، ويكفينا تعريف ابن وهب للجدل والمجادلة في قوله: "وأما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في الديانات وفي الحقوق والخصومات، والتنصل في الاعتذارات"[2].

علاقة البنى الحجاجية بالنص الحجاجي:

عُرف الحجاج في النظرية الحجاجية المعاصرة وعلم اللغة النصي بمصطلحات عدة: (السمات الموضوعية العامة، أو البنى اللغوية المميزة، أو الغرض البلاغي والوظيفة الاتصالية).

ويرى أندرسين ودوفر أن الحجاج طريقة لاستخدام التحليل العقلي والمنطق، بهدف حل الخلافات واتخاذ قرارات مؤثرة في وجهات النظر والسلوك. وهو عند بيرلمان وتيتيكا: مجموعة من أساليب الخطاب التي تهدف إلى اجتذاب المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو ترسيخ ذلك

---

1 - محمد السيد سليمان العبد (دكتور): النص الحجاجي العربي- دراسة في وسائل الحجاج، الحجاج مفهومه ومجالاته، 2010 م، ج4 ص: 7.

2 - إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب (أبو الحسين)- البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب، جامعة بعداد، 1967، ص: 222.

الاجتذاب لديهم. أما عند ريك وسيلارز فالحجاج عملية عرض دعاوى تتضارب فيها المفاهيم وتختلف فيها العلل بغية الحصول على الدعم والمولاة لإحدى تلك الدعاوى.

ويرى ماس أن الحجاج سياق لغوي تعرض فيه فرضيات وادعاءات مختلف فيها. هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هي مشكل الفعل اللغوي. وهو عند شيفرين: "نوع من الخطاب، تنصب جهود الأفراد على مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه، الذي ينقضون فيه دعامة موقف خصومهم، وهو عند هاينمار وفيفيجر فهو عملية اتصالية تشمل على كل نوع من أنواع عرض البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع ولاهتمامات[1].

وعلى ذلك فإنه من التعريفات السابقة يمكن القول: إن العلاقة بين بنى النص الحجاجي وأجزائه علاقة منطقية تخضع للمعايير الموضوعية الاستنباطية ولا مجال فيها للتصورات المباشرة.

دور الحجاج في التأثير والإقناع:

يفرق توماس شايدل بين مفهومي الحجاج والإقناع قائلا: "إن الحجاج محاولة واعية للتأثير في السلوك"[2]. وكلمة "واعية" تجعل من الحجاج وسيلة تقوم على منطق عقلي؛ والحجاج أعم وأشمل من الإقناع، لا بل إن الإقناع جزء منه، فكل إقناع حجاج، وليس كل حجاج إقناع، كما أن هناك نوعا من الحجاج يقوم بوظيفة المستجدي للمتلقي المستدر لعاطفته مغيبا لوعيه؛ فالحجاج بهذا عملة ذات وجهين: وجه يتعلق بالتأثير (العاطفة)، وآخر يتعلق بالوعي (العقل).

وإلى هذا الرأي أشار أوستين حين فرق بين: الحجاج والإقناع واعتبرهما جزأين من عملية واحدة، وكأنه يشير إلى التأثير والإقناع، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد. والحجاج يولي الدعاوي المنطقية (أي الجانب العقلي) أهمية كبيرة، ولكنه لا يهمل الدعاوي الأخلاقية والعاطفية. بيد أن

---

1 - شيفرين: نقلا عن محمد العبد – النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الحجاج، مفهومه ومجالاته، الجز: 4، ص: 4

2 - وهذا المفهوم للحجاج المقنع من خلال هذا التعريف الذي حدد وظيفة أو غاية الحجاج بأنها التأثير في السلوك، قد تجاوز مفهومه المقصد القرآني، الذي جعل غاية الحجاج الإقناع وليس -التأثير في السلوك، فهناك فرق كبير بين دالة الإقناع وتعديل السلوك، حيث إن الأول كامن في كل من الخطاب والمرسل، أما الأخير فهو أمر متعلق فحسب بـ المتلقي.

الإقناع ينعكس على التوكيد الذي يبطل ضده. ويرى مارتين وأندرسين أن كل اتصال هدفه الإقناع، لأنه يهدف إلى تحصيل رد فعل على أفكار المتصلين.

الحجاج والدليل:

البرهان يوازي الجزء العقلي الإقناعي في "الحجاج، فكلاهما لا يوليان العواطف أدنى اهتمام. ومن الضروري أن نفرق بين: الحجاج والبرهان؛ حتى لا يحصل الخلط بينهما من ناحية، وحتى يكون الحجاج أكثر وضوحا. فالحجاج ليس خطابا برهانيا، أي أنه لا يقدم للمتلقين براهين وأدلة منطقية، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي، وأحكامه في المجمل احتمالية. وأما البرهان فهو منطقي بكل معنى الكلمة، وأحكامه حتمية، ونمثل لهما بالقول: [أرسطو إنسان← كل إنسان ميت← أرسطو ميت]← (استنتاج حتمي)، [السماء ممتلئة بالغيوم ← إذن سينزل المطر] ← (استنتاج احتمالي).

ثم يميز بول غرايس بين الخطاب البرهاني والخطاب الحجاجي بمثالين آخرين فيقول:

أ: [كل الأعداد الزوجية تقبل القسمة على(2)، (4) عدد زوجي-إذن (4) تقبل القسمة على (2)]

بـ: سينجح المهرجان، فعدد الحاضرين سيفوق التوقعات، والبرنامج يتميز بالأصالة، ثم إنها المرة الأولى التي يحضر فيها الوزير شخصيا.

ثم يعلق قائلا: "ولنعلن منذ البداية أن المثال الأول ينتمي إلى مجال الاستدلالات البرهانية، والمثال الثاني ينتمي إلى مجالات الاستدلالات الحجاجية، ثم يتساءل: فما الفرق إذن بين هاتين الصورتين؟ ثم يعرض ستة فروق وجيهة[1] كالآتي:

أولا: العلاقات البرهانية علاقات صورية صارمة لا تراعي القيم الداخلية التي تتضمنها هذه العبارات (معانيها، إحالاتها الخارجية)، أما العلاقات الحجاجية التي تنشأ في الخطاب الطبيعي، فإن

[1] - رشيد الراضي- الحجاج و البرهان، الحجاج: مفهومه و مجالاته، الجزء:1، ص:187.

الألفاظ فيها تستجيب لاعتبارات داخلية محضة ترتبط بطبيعة تلك الألفاظ ومعناها، أي أن المحتوى يلعب دورا حاسما في الانتقال بين الوحدات في العملية الحجاجية.

ثانيا: الاستدلال البرهاني يكتفي بدليل واحد لتكون النتيجة مثبتة أو منفية، و يعد تكثير الأدلة حشو لا طائل من ورائه، أما الاستدلال الحجاجي فيتميز بالتوسع في عدد الحجج، فقد نكتفي بحجة واحدة، وقد تتعدد الحجج في عملية حجاجية بعينها دون أن يؤدي ذلك إلى الخروج عن الصورة المناسبة للفعالية الحجاجية.

ثالثا: البرهان مستقل عن الذات الإنسانية، فالبناءات البرهانية جمل من العلاقات الموضوعية القائمة بذاتها والمستندة على قوانين عامة تستمد قوتها من ذاتها وتفرض سلطتها على غيرها، أما العلاقة الحجاجية فمرتبطة ارتباطا وثيقا بسياق تداولها الإنساني، فالمخاطِب بالحجاج يمثل ركنا أساسيا في نماء الفعل الحجاجي، وبالتالي فالحجاج لا معنى له إلا بوجود المخاطَب به.

رابعا: يتميز الحجاج باعتماده على مجموعة من القيم والمعايير والعلاقات المتميزة بطبيعتها الظنية واللايقينية، هي تقوم في الحجاج مقام القوانين والقواعد العقلية الضرورية التي يقوم عليها الاستدلال في المصوغات البرهانية.

خامسا: باب الحجاج مفتوح على الاعتراض ومعرض دائما للدحض والتفنيد والمنازعة، فكل عملية حجاجية يمكن مواجهتها بعملية حجاجية معارضة تتأسس على مواضع معاندة تعكس مرجعيات قيمية مغايرة، وهذا بخلاف البرهان الذي يكون ملازما على الدوام لطبيعته اليقينية الكلية.

سادسا: خلافا للبرهان الذي يلزم فيه التصريح بكل مكوناته، فإن الخطاب الحجاجي يرد في صورة ضمنية ، فقد يتم في عملية من العمليات الحجاجية إضمار جزء من أجزائها على فرض أن المخاطَب قادر على تقديرها بفضل القرائن المقامية والسياقية، ولا يشكل هذا الإضمار نقصا في الحجاج.

رغم كل تلك الفروقات فإن "البرهان" يتفق مع الحجاج ويدانيه من حيث الصورة؛ أي أن كلا من الحجاج والبرهان يقوم أو ينطلق من مقدمات (فرضيات) وينتهي بنتائج؛ غير أن صفة الضرورة في البرهان تقع في مستويين اثنين: في (الصورة والمادة)، أما الحجاج فصفة الضرورة فيه لا تكون

إلا في الصورة (أي كونه يشتمل على مقدمات ونتائج). وهذا يجعل الحجاج أعم وأشمل من البرهان من حيث اتساعه في الأساليب التي يعتمدها في إقامة الحجة أو البرهان. من المعلوم بالضرورة أنه في البرهان والحجاج ترتبط المقدمات بالنتيجة ارتباطا ضروريا ملزما، لكن البرهان يهدف إلى بلوغ اليقين من مقدمات أو مبادئ عقلية ضرورية بحتة، بهذا يلتقي كل من البرهان والجدل.

أما الحجاج فيتميز عن البرهان والجدل بأنه حجاج إقناع، وكل مقنع لا بد أن يكون مؤثرا، لهذا فهو يبدأ بالتأثير وينتهي بالإقناع، وهو ما قصدنا به جانب الاتساع؛ أي أن الحجاج خطاب تكاملي (وجداني/عقلي) يخاطب في المتلقي جانبي الوجدان والعقل.

خلاصة لما سبق: يتبين لنا أن الحجاج والبرهان لا تجمعهما صلة عميقة وثيقة سوى العلاقة (الصورية أو الشكلية) التي تتعلق بالمقدمات والنتائج، علاوة على أن نتائج الحجاج احتمالية ونتائج البرهان حتمية يقينية، ومن يحاول فرض قواعد المنطق الصوري على الحجاج إنما يكون ذلك من باب التصنع لا الحقيقة؛ لأن الحجاج يرتبط بالتقييم، والتقييم أقرب إلى أنظمة القيم لدى المتلقين منه إلى قواعد المنطق الجائرة.

إن العوامل اللفظية والسياقية والموقفية والعوامل التداولية ليست ميدان المنطق، ولكنها للحجاج وسائل وأدوات تلعب دورا كبيرا في عملية الاتصال التي هي أحد أهم وظائف الحجاج.

وبذلك يتضح لنا أن الحجاج قديما كان موضوعا أساسا لمجالات عدة كالخطابة والمناظرة والفلسفة والمنطق، لكنه تطور في العصر الحديث ليصبح علما قائما بذاته تتناوله الدراسات الحديثة؛ أي لم يعد تابعا، بل أصبح علما له نظرياته ومصطلحاته وحدوده وتفريعاته. وغدا الحجاج وفق هذه النظريات جزءا لا يتجزأ من الخطاب الإنساني، فكل خطاب هو حجاج، سواء كان الخطاب صريحا أو ضمنيا، ومهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك.

وهذا المعنى للحجاج تتبناه أبرز نظريات الحجاج ومنظريها المعاصرين؛ كـ (بيرلمان)، وميشال ماييز فهذا الأخير يعرف الحجاج بكونه جهدا إقناعيا (إفحاميا). ويعتبر البعد الحجاجي بعدا جوهريا في اللغة؛ لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه[1].

ومن هذا المنطلق يكون الحجاج أساسا راسخا في اللغة ذاتها، ويترتب على هذا أنه حيثما يوجد خطاب اللغة والعقل؛ فإن ثمة حجاج واستراتيجيات تستمد خصائصها وقيمتها من الحقل الذي تتحقق فيه (اللغة) ويعطيها الشرعية. ولم يعد الحجاج منحصرا في استعمالات خطابية آنية، بل تعداه ليكون بعدا ملازم لكل خطاب.

حجية الدليل وفرض الإلزام:

بعد أن أشرنا إلى مفهوم الإقناع والتأثير، نتناول بعجالة مفهوم "الإلزام"؛ حيث إن هذا المفهوم –في تصور الباحث- أقرب إلى الخضوع منه إلى الإقناع، فالإقناع يمنح المخاطب الحرية المطلقة في اختيار الأثر الذي يترتب عليه حجاجية الإقناع، لكن الإلزام يسلب الإنسان تلك الحرية في اختيار الأثر ويستخف به.

فحجج فرعون موسى -مثلا- في خطابه لقومه هي من تلك الصورة للإلزام؛ فلكي يثبت أنه الإله قدم حججا سماها القرآن في نهاية المطاف استخفافا، مع أنها آتت أكلها وحصل بها الإلزام والتطويع، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2]. مقدمتان كانتا كافيتين ليقرر النتيجة ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾[3] .﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ٢٤﴾ [النازعات: 24]. كما تناول القرآن استخفافه بقومه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف:54).

وهذا الحجاج هو ما أشرنا إليه آنفا، فهو يستهدف عاطفة المتلقي مشوشا على وعيهم أي أنه يستغل عاطفة المتلقي وفي الوقت نفسه يستغفل أو يستخف بوعيه.

---

[1] - ميشال ماييز: نقلا عن الحبيب أعراب – الحجاج و الاستدلال الحجاجي ، عناصر استقصاء نظري، ج3ص 31-33.

[2] الزخرف: 51

[3] القصص:38

وهكذا يلجأ الطواغيت أحيانا إلى العدول عن أسلوب العنف، إلى لحن اللسان، فاللسان قد يقوم مقام القبضة الأمنية في التأثير على الآخر، وقد كان فرعون مصر -مثلا- يستعمل تارة القبضة الأمنية كما قال الله عنه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] وتارة أخرى يستعمل معهم الحجة أو التمويه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾[2].

ولقد اتهم الشوكاني فرعون بالسذاجة والجهل عندما لم يدرك مراده ومكره، فقال في تفسير الآية: "وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدا"[3]، أما سيد قطب فنفى هذا وتنبه لقصد المحاجية والتمويه من وراء كلام فرعون، فقال معلقا: "هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور، (...) وبعيدا عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه، وبعيدا أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج. وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور. إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة. والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى. وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن!"[4].

ويتفق سيد قطب مع الدكتور محمد الداهي في توصيف "التمويه" حيث جعله أحد عناصر الإلزام الحجاجي، وهو يتحدث عن أنواع الإلزام والتطويع؛ حيث جعل "التمويه" على رأس العناصر وغرضه -بحسب عبارته- "يضلل الرأي العام بتوظيف أخبار مغلوطة أو تضخيمها لأهداف محددة سلفا"[5].

وهذا النوع من الإلزام اللغوي قد أشار إليه ﷺ إشارة ضمنية في قوله وذلك في سياق المتخاصمين أو الخصومة وهي إحدى حقول الحجاج:(إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ

---

[1] القصص:4

[2] غافر: 36

[3] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله ت 1250هـ، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الأولى - 1414 هـ، ج4ص 564

4 - سيد قطب- في ظلال القرآن: 258/6.

5 - الحجاج مفهومه ومجالاته: ج1 ص: 261.

أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِى لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ)[1]. وفي رواية البخاري: (فمن قضيت له بحق أخيه بقوله)[2] أي بلحنه وبيانه، وفي ذلك إشارة إلى قدرة الكلام على التأثير في الآخر، وما يمتلكه من سلطة تلوي الحق، إنه يؤثر حتى في الرسول ﷺ، فما بالك بالآخرين، وهذا دليل على أن الحياة تؤخذ حسب معايير موضوعية لا اعتبارات عاطفية.

وهكذا قد يجند المرء اللغة لهدف في نفسه، وهذا ليس لعيب في بيانه أو بلاغته وفصاحته اللغوية، بل لغرض مضمن من وراء البيان أو اللحن بالتعبير النبوي.

فإن "هناك -بعبارة د. محمد الداهي- من يستعمل كفايته اللغوية لإحداث تواصل فعال مع غيره على نحو يعزز التفاهم والتعاون والاحترام بين الطرفين، في حين أن هناك من يستعمل حذقه اللغوي؛ لتمويه الآخرين وتغليطهم وإخضاعهم بغية تحقيق مآربه وتطلعاته الشخصية. فحيث تتضارب المصالح الشخصية ينتعش التطويع الذي يسهم -إن لم يدبر بطرق عقلانية وتشاركية- في تعكير صفو العلاقات الإنسانية وتدميرها"[3].

الحجاج في ضوء القرآن الكريم:

جاء في المفردات للراغب[4]: "الحُجَّةُ في الاصطلاح: "الدَّلَالَةُ المُبَيِّنَةُ للمَحَجَّةِ أي؛ المَقصَد المستقيم والذي يقتضي صحة أحد النقيضين، قال ﷻ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[5] والمُحَاجَةُ: أن

1- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (أبو الحسين)، صحيح مسلم، دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت،رقم (1713)

[2] صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الأولى، 1422هـ، رقم (2680)

[3] - محمد الداهي (دكتور)، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1 ص: 260.

4 - الراغب الأصفهاني- المفردات: تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الثالثة، 2001، ص115

[5] الأنعام:149

يطلبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخرَ عن حُجَّتِه ومحجَّتِه, قال ﷻ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ... ﴾[1] .

فالمحجة من هذا المنطلق هي جدال بين جماعتين، أو شخصين، أو بين شخص وجماعة أشخاص؛ واللغة هي وسيلتها وأداتها، والغالب فيها المتمكن من استغلال وتوظيف اللغة لخدمة غايته، وحسن إدارة وسائلها الحجاجية. فالحجة أو المحاجة ما هي إلا القدرة على توظيف إمكانيات اللغة والأخذ بكل وسائلها الحجاجية والإقناعية؛ فمن حاز وسائل البلاغة كان أبلغ ومن كان أبلغ كان أوضح ومن كان أوضح كان أقدر على التأثير والإقناع. حتى وإن كان بيانه يجانب الحقيقة؛ وذلك لأن القدرة على إدارة أدوات اللغة تعطيه قوة سحرية تمكنه من الغلبة والتأثير في الطرف الآخر كما الساحر يسحر أعين الناس.

والرسول ﷺ قد أشار إلى مثل ذلك الأثر في قوله: (إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا)[2]. قال الميداني: "وإنما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له يضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة"[3].

ونود الإشارة هنا إلى أن البيان قد يُستَغل استغلالا سيئا؛ فيسعى صاحبه إلى الخداع وتزييف الحقائق وتزيين الباطل؛ ليظهر في صورة الحق, وفي البيان القرآني ما يشير إلى ذلك الاستخدام ومن ذلك -مثلا- قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾[4] ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[5]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ

---

[1] الأنعام: 80

2 - صحيح البخاري، رقم (5146)

3 - أحمد بن محمد الميداني النيسابوري (أبو الفضل)، مجمع الأمثال، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، (د.ت)، ج1 ص:1. وأبو هلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش، دار الفكر، الثانية ، 1988، ج1 ص: 5.

[4] البقرة: 204

[5] المنافقون: 4

وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1] ، فالنصوص القرآنية السالفة تبين استغلال اللغة لمصلحة دنيئة تهدف إلى خداع الآخرين، والتوظيف غير المشروع للغة ووسائل الحجاج فيها؛ لإبراز الباطل في صورة الحق، يقول الزمخشري: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموّهه ﴿غُرُوراً﴾ خدعاً وأخذاً على غرّة"[2]. وهذا الاستغلال والخداع يظهر دجليا كما بينا في البيان النبوي في قوله ﷺ في سياق حديثه عن المتخاصمَين: (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا)[3]. كما أن الاستخدام القرآني قد تناول (اللحن)، بمعنى تزيين القول، وجعله سمة للمنافقين, ومن ذلك قوله ﷻ ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾[4]. أي؛ "في نحوه وأسلوبه الحسن"[5]. وقوله ﷻ ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾[6] ، "أي؛ لما يتصفون به من جهارة المناظر وفصاحة الألسن"[7].

ولا بد من التنويه هنا إلى أن الذم و القدح لا يتوجه في الحقيقة إلى البيان ذاته؛ إنما يتوجه إلى نية وقصد صاحبه منه، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن كل كلام بليغ مؤثر تميل إليه النفس يدخل ضمن هذا الحكم، بل المعني هو القصد من ذلك البيان ونية قائله ومقصده فذلك هو محض كلامنا و مبتغى إفهامنا، أما البيان ذاته فبراء من ذلك كله.

لقد تناول القرآن الكريم (الحجة) وذكرها في مواضع كثيرة منه، وبتعابير متباينة المعنى، توزعت بين (الحجة، والحكمة، القول الفصل، وفصل الخطاب، والسلطان) وهذه المفردات رغم

---

[1] الأنعام: 112

[2] - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ت 538هـ، دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة - 1407 هـ: ج2ص 59

3 - صحيح البخاري: رقم (5146)

[4] محمد:30

5 - عبد الله بن أحمد النسفي: تفسير النسفي, تحقيق: أحمد عبد العليم البر دوني، دار الشعب, القاهرة, الثانية، 1372, ج2 ص: 150 .

[6] المنافقون:4.

7 - تفسير النسفي: ج4 ص150

تنوعها واختلاف تسمياتها؛ إلا أنها من حيث الدلالات متقاربة إلى حد بعيد؛ وذلك باعتبار السياقات التي وردت فيها هذه المفردات.

ورد لفظ (الحجة) في القرآن الكريم في موضعين اثنين، نسبهما الله ﷻ لنفسه في كلا الموضعين: أما الموضع الأول ففي قوله ﷻ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾[1] ، و ما يفهم من وصف الحجة بالبالغة؛ بعد نسبتها إلى الله ﷻ هي قدرتها في التأثير في المتلقين، فهي – لمن تدبرها – كافية بأن تسير به إلى جادة الصواب و القصد الصحيح الذي أراده الله وهو الهداية، وهذا ما يفهم من تتمة الآية على قدرة الله على هداية الناس كافة بكلمة (كن) الإلهية, فمشيئة الله ﷻ نافذة لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء, قال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]

ولما كان من حكمة الله ﷻ أن قضى احترام هذا الكائن الإنساني وتمييزيه عن سائر المخلوقات الأخرى بأدوات التعقل والتأمل والتفكر، التي خولته إلى الإقناع أو الاقتناع؛ فمنح الخالق الإنسان الحرية بعد أن قدم له كل أسباب الهداية ودلائلها، ومن ناحية ثانية أن البيان القرآني والنبوي فيه من الحجة ووسائل الإقناع حتى وصف القرآن الكريم بأنه حجة الله البالغة؛ ولما كانت نصوص الوحي نصوص حجاج وإقناع ترك أمر العقيدة –أقدس المقدسات- للاقتناع الإنساني؛ وهو ما يبينه بجلاء قوله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[3]﴾ ، ولو كان اعتناق الدين بالإكراه لكان الله جلت قدرته من تولى ذلك فقد كان بإمكانه ﷻ أن يكره الناس إكراها على الهداية ويقصرهم عليها قصرا دونما محض اختيار, وهو ما يُفهم من قوله تعالي:ﷻ ﴿ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾. وقد كان ذلك منه ﷻ للسموات والأرض ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[4]، وقال الله ﷻ في آية أخرى توضح هذا الإتيان وهذه الطاعة من الجمادات ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا

---

[1] الأنعام:149

[2] يس: 82

[3] البقرة: 256

[4] فصلت: 11

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

إن الله لا يعجزه أن يجبر الإنسان على الطاعة بالإكراه كونه خلق من مخلوقاته الكثيرة، لكنه سبحانه ميزها بأدوات الإدراك وبسط لها سبل السلامة في النظام الإلهي الذي يتناسب مع عقل الإنسانية فهو صانعه ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾[3]. وعلى هذا المخلوق أن يعمل عقله في تدبر الحجاج في القرآن، ففيه ما يكفيه من التأثير والإقناع ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[4] .عبر منظومة إدراك ثلاثية الأبعاد (السمع والبصر والفؤاد)؛ إذ المطلوب من المتلقي التدبر عبر تلك الأدوات التي مُيِّز بها، ومن ثم فهو مسؤول عنها ومحاسب بها ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[5].

والحجة البالغة – بحسب ابن عاشور - "هي الواصلة إلى ما قصدت لأجله، وهو غلب الخصم، وإبطال حجته، كقوله ﷻ: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ [6]﴾، فالبلوغ استعارة مشهورة لحصول المقصود من الشيء فلا حاجة إلى إجراء استعارة مكنية في الحجة بأن تشبه بسائر إلى غاية، وقرينتها إثبات البلوغ، ولا حاجة أيضا إلى جعل إسناد البلوغ إلى الحجة مجازا عقليا، أي بالغا صاحبها قصده، لأنه لا محيص من اعتبار الاستعارة في معنى البلوغ، فالتفسير من أول وهلة أولى، والمعنى: لله الحجة الغالبة لكم، أي وليس استدلالكم بحجة"[7].

---

[1] الحشر: 21

[2] البقرة: 74

[3] النمل: 88

[4] محمد:24

[5] الإسراء: 36

[6] القمر:5

[7] التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ت 1393هـ، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ، ج8 ص151-152

وأما الموضع الثاني فهو في قوله ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم﴾[1] الحجة هنا – حسب ابن عاشور– إشارة إلى جميع ما تكلم به إبراهيم في محاجة قومه"[2]. والحجة هنا تطلق و تشير إلى على النص المنطوق، فقد كانت محاججة سيدنا إبراهيم لقومه مشافهة ووجها لوجه.

المصطلحات الحجاجية في القرآن الكريم:

استعمل القرآن الكريم عددا من المفردة كـ (الحكمة، وفصل الخطاب، والقول الفصل، والسلطان، والبرهان)، وذلك في النصوص القرآنية الآتية: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُر﴾[3] ،﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4] ، ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[5]، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِير﴾[6] ،﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَاب ﴾[7] ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْل ﴾[8]. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾[9]. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[10].

فالآيات الكريمات السابقات قد أوردت الحجة بألفاظ غير مباشرة تباينت بين: الحكمة، وفصل الخطاب، والقول الفصل، والسلطان، والبرهان). وهذه كلها تدل على الحجة والبرهان في التناول القرآني وهو ما أشار إليه المفسرون.

---

[1] الأنعام:83

[2] التحرير والتنوير: ج7ص335.

[3] القمر:5

[4] البقرة: 269

[5] الإسراء: 39

[6] هود: 1

[7] ص:20

[8] الطارق:13

[9] الصافات:156

[10] الأنبياء: 24

1- الحكمة:

تنوعت أراء المفسرين حول مفهوم الحكمة بين النبوة، وكمال وإتقان العمل، وكل كلام وافق الحكمة فهو حكمة وإتقان الفهم وإصابة العقل[1]. وأما الحكمة بوصفها (بالغة) فالمراد به – بحسب ابن عاشور – الكلام الذي تضمن الحكمة ويفيد سامعه حكمة، فوصف الكلام بالحكمة مجاز عقلي كثير الاستعمال ... والبالغة: الواصلة، أي واصلة إلى المقصود مفيدة لصاحبها"[2]. وأرجع الرازي الحكمة إلى الترتيب الحكمي للآيات التي سبقت آية (حكمة بالغة)، وقد تعود إلى الأنباء﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَر [3]﴾. والنبأ هو الخبر العظيم، وهذا ما دل عليه السياق القرآني من مثل قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِين﴾ (النمل:22) لأنه كان خبراً عظيماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[4] أي محاربة أو مسالمة وما يشبهه من الأمور العرفية وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ فكذلك الأنباء ههنا وقال ﷻ بلسان موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[5] ، حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له نبأ ولم يقصده. والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب. وقال بعضهم المراد القرآن وتقديره جاء فيه الأنباء وقيل قوله جَاءكُمْ مّنَ الأنبَاء يتناول جميع ما ورد في القرآن من الزواجر والمواعظ.

---

1 ينظر: محمود الألوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المشهور بـ (روح المعاني - الألوسي)، الجزء: 23، دار إحياء التراث العربي، بيروت(د.ت): ص:177، وابن عاشور- التحرير والتنوير: 175/27.

2 ينظر: محمود الألوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المشهور بـ (روح المعاني - الألوسي)، الجزء: 23، دار إحياء التراث العربي، بيروت(د.ت): ص:177، وابن عاشور- التحرير والتنوير: 175/27.

3 القمر:4

4 الحجرات: 6

5 القصص: 29

2- فصل الخطاب: فقد قيل: إنه "البين من الكلام الملخص، الذي يتبينه من يخاطب به، لا يلتبس عليه"[1]. ويذهب الشوكاني إلى قريب من هذا فيقول: "هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل"[2]. "فالخطاب؛ بمعنى الكلام المخاطب به أيضاً، والفصل؛ مصدر إما بمعنى اسم الفاعل أي؛ الفاصل المميز للمقصود عن غيره، أو بمعنى اسم المفعول أي؛ المقصود أي؛ الذي فصل من بين أفراد الكلام بتلخيصه مراعاة ما سمعت فيه أو الذي فصل بعضه عن بعض ولم يجعل ملبساً مختلطاً. وقيل هو الذي ليس فيه اختصار مخل، ولا إشباع ممل، كما جاء في وصف كلام نبينا ﷺ: "لا نزر ولا هذر"[3].

3- القول الفصل: "فالمراد قول فاصل بين الحق والباطل قد بلغ الغاية في ذلك، حتى كأنه نفس الفصل"[4]. وقيل "الذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب"[5]. ومنه قوله ﷻ: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾[6] ذهب أبو علي الفارسي, بأن القصص ههنا بمعنى القول, وجاء الفصل فيه قال ﷻ:﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾[7] .﴿كِتَابٌ أُحۡكِمَتۡ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾[8] . "والتفصيل: التوضيح والبيان. وهو مشتق من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني ... و(ثم) للتراخي في الرتبة كما من شأنها عطف الجمل لما في التفصيل من الاهتمام

---

1 - تفسير النسفي: ج4ص31

2 - الشوكاني: فتح القدير: ج ص 406.

3 - أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه ت 405هـ: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، 1411 – 1990، رقم (4274) الآلوسي- روح المعاني: 310/17.

4 - الآلوسي:روح المعاني: 354/22.

5 - سيد قطب: في ظلال القرآن: 8-9

6 الأنعام: 57

7 الطارق: 14

8 - الآلوسي: روح المعاني: 349/5.

لدى النفوس لأن العقول ترتاح إلى البيان والإيضاح"[1]. "والفصل: يُطلق بمعنى القضاء، ويطلق بمعنى الكلام الفاصل بين الحق والباطل, والصواب والخطأ "[2].

4- السلطان: تعد لفظة "السلطان" الأكثر ذكرا و تكرار في القرآن الكريم، وتمركزت معظم معانيها حول الحجة والبرهان، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِين ﴾[3]. فُسِّر السلطان بالحجة الواضحة الظاهرة "[4]. وورد تعريفات أخرى للسلطة تباينت بين: "القدرة والقوة على الشيء .. و"القوة الآمرة التي في حوزتها الإمكانية الفعلية، لتسيير أنشطة الناس، بتنسيق المصالح المتعارضة للأفراد، أو الجماعات، وبإلحاق تلك المصالح بإدارة واحدة، عن طريق الإقناع أو القسر .. "القدرة على التأثير في ممارسة سلوك وتوجيهه نحو الأهداف والغايات التي يحددها من له القدرة على فرض إرادته"[5]

وتحمل كلمة "السلطان" -بدلالتها على الحجة والبرهان- استعارة تصريحية، حيث شبه الحجة البالغة بالسلطان لسيطرتها على العقول والأفكار، فسلطان القرآن واضح أثره على مشركي قريش، وظهر جليا في اعتراف الوليد بن المغيرة ببلاغة القرآن وحجته.

ويتعارض تفسير السلطة على أنها القوة والقدرة والإكراه مع مفهوم (السلطان) أو الحجة البالغة، الذي وسيلته الإقناع (لا الإكراه)؛ وهذا ما فهم من قوله ﷻ: ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ بالإقناع، ﴿ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين﴾ بالإكراه، ولذا كان سبيل الحجة البالغة في المقصد القرآني الإقناع؛ وهذا يتماشى مع مبدأ عام في القرآن؛ وهو قوله ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[6]، وتمييز الرشد عن الغي يكمن في حجة الله البالغة.

---

1 - ابن عاشور- التحرير والتنوير: 315/11.

2 - السابق: 315/11.

[3] الصافات:156

4 - ابن عاشور- التحرير والتنوير: 183/23، والشوكاني- فتح القدير: 589/4.

5 - عبد العزيز العيادي (دكتور): المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1994، ط:1، ص: 43-44.

[6] البقرة: 256

إذا فسلطان القرآن على الإنسان هو حجته الإقناعية، وهو قوي الأثر على الإنسان؛ إلا أن البعض ممن لم تكتب لهم الهداية قد عطل أدوات إدراكه تعطيلا تاما و جعل عليها قفلا محكما، (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[1]، فوقفوا بتلك الأقفال موقفا متصلبا تجاه القرآن رافضا لحجيته البالغة، حتى تجاوزت قلوبهم بشدة قسوتها الحجارة الصلبة التي وصفها الله بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[2]، بل أشد من صلابة الجبال ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ولقد ضرب القرآن ببني إسرائيل مثلا وشبه صلابة وقسوة قلوبهم بصلابة وقسوة الحجارة؛ "فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة"[4]

مفهوم (البالغة):

(البالغة) عند أبي حيان "ما يَستدِل الإنسانُ عليها بما أودعه اللهُ فيه من وسائل الإدراك دون أن يتعرض لذاتها وماهيتها. وجاء عند ابن منظور: "بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً وصَلَ وانْتَهَى. وتَبَلَّغَ بالشيء وصَلَ إلى مُرادِه. والبلاغ الكفاية. وتقول له في هذا بَلاغٌ وبُلْغةٌ وتَبَلُّغٌ أَي كِفايةٌ. والإبلاغُ الإيصالُ وكذلك التبْلِيغُ[5]. وفي المفردات: "البلُوغُ والبلاغُ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدَّرةِ ﴿ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ ﴾[6]. أي مُنتَهِيةٌ في

---

[1] محمد:24

[2] البقرة: 74

[3] الحشر: 21

4 - سيد قطب- في ظلال القرآن: 1-53

5 - ابن منظور- لسان العرب (ب ل غ): ج8 ص419

[6] القلم:35

التوكيدِ"[1]. قال أبو حيان: في تفسير قوله ﷻ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[2] أي الاحتجاج الغالب كل حجة"[3].

أما الشوكاني فقد "حدّهاَ هنا بالكتب المنزلة والرسل ومعجزاتهم والسلطان"[4]. وينعتها ابن عاشور بالصادقة، والكفاية الاتصالية، وقدرة الإقناع، فيقول: "الحجة: الأمر الذي يدل على صدق أحد في دعواه, وعلى مصادفة المستدل وجه الحق. والبالغة: أي الواصلة إلى ما قصدت لأجله وهو غلب الخصم وإبطال حجته"[5].

وتتميز الحجة عند ابن عاشور بأمرين: الأول؛ صدقها[6]، والثاني قدرتها على البلاغ والتوصيل؛ ولهذا وصف البلاغ القرآني والحجة البالغة فيه بهذه الصفة، و لما كان القرآن هو الحجة الصادقة والبالغة فهو الأقدر على الوصول إلى المخاطبين وإقناعهم.

نخلص مما سبق إلى أن دلالات الحجة البالغة تحاكي خواص المثل أو التمثيل في نصوص القرآن الكريم، من حيث وظيفة البلاغ، التي لا تقف عند حد التأثير والإمتاع، بل تتعداها إلى الإقناع بالفكرة التي يحملها ذلك البلاغ من خلال التقنيات الحجاجية المختلفة. فالكفاية الاتصالية لا تقف إلا حيث يحصل الإقناع بها، فالإقناع هو غاية بلوغ الحجة وكفايتها الاتصالية؛ لذلك جاء في التناول القرآني بما يوحي بهذه المعاني كلها وذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون ﴾[7].

---

1 - الراغب الأصفهاني- المفردات: 70.

[2] الأنعام:149

3 - أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ت 745هـ: البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، 1420 هـ، ج4 ص663

4 - الشوكاني- فتح القدير: 495/2.

5 - ابن عاشور- التحرير والتنوير: 151/8.

6 - وهذا الصدق ينخلع على بلاغة النصوص القرآنية والنبوية، وخاصة فيما يتعلق باستعمالهما المجاز، (التصوير البياني) على وجه التحديد، فالصورة البيانية في كل من التعبيرين القرآني والنبوي ما يميزها عن بقية ألوان الخطاب الأخرى سواء كانت شعرية أم نثرية هو أن الصورة في القرآن والحديث حقيقية وصادقة وليس فيها أي نوع من التصوير الذي ليس له مماثل في بيئة المخاطبين ...

[7] القصص:51

ولفظ (القول) في هذه الآية أريد به القرآن. ومجيء الفعل (وصَّلنا) بصيغة التضعيف فيه دلالة إلى أن التوصيل قد بلغ أوجه و كماله في بلاغة الأسلوب وسلطته الحجاجية، وقدرته البالغة في إيصال المعنى وإقامة الحجة على المخاطبين؛ خاصة وأن التعبير القرآني قد تناول القول البليغ في سياق الوعظ للمنافقين, وذلك في قوله ﷻ مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[1]، "ومعنى بليغا: أي مؤثرا فيهم"[2]؛ فحصلت من خلاله الكفاية الاتصالية و الإقناع.

و نشير هنا إلى أنه قد يحصل إقناع بذلك البلاغ الناتج عن التأثير؛ لكن لا بد أن يترجم ذلك الأثر المقنع إلى عمل ملموس يظهر أثره على المخاطبين؛ فإن الرسول ﷺ قد أقام عليهم الحجة الكاملة، وليس عليه هداهم إذا لم يتحول ذلك البلاغ إلى سلوك ظاهر عيانا في تصرفاتهم، فقد قال الله ﷻ بعد أن أمره بالبلاغ المبين: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾[3]، وبذلك قد حصل التبليغ؛ وهو ما أقره القرآن الكريم في لفظ (وصّلنا) في الآية السابقة؛ فالإشارة بتوصيل القول في الآية السابقة "إنما هي إلى الألفاظ؛ فالمعنى ولقد وصلنا لهم قولا معجزا دالا على نبوتك"[4]. أو "وَصَّلنَا: بمعنى بَيَّنَا"[5]. أو "وصلنا لهم قولاً يَتَضَمَّنُ معاني مَنْ تَدَبَّرَهَا اهْتَدَى"[6]. واستعمال لفظة (وصَّلْنَا) بدلا من (أوصَلْنا) فيه – كما سلف - مزيد مبالغة, تبين دلالة حجة الله البالغة وحصول أثرها.

---

[1] النساء: 63

2 - انظر: تفسير النسفي: 236/1.

[3] الشورى: 48

4 - محمد بن يوسف (الشهير بأبي حيان الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، الجزء: 7، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق د.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، 1422 2001، ط: 1، ص:120. و (تفسير الثعالبي: 178/3).

5 - الشوكاني- فتح القدير: 411/5.

6 - عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المشهور بـ (تفسير الثعالبي)، الجزء: 3، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، (د.ت) ص:157.

إن حجية القرآن واصلة بالغة غالبة و هذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين ، ويظهر هذا جليا كما أسلفنا من قبل في شخص الوليد بن المغيرة، فعلى الرغم من أنه مات كافرا لكنه لم يقاوم تلك البلاغة ولم يواجه تلك الحجة، فما كان منه إلا الإقرار بأن حجة القرآن البالغة لا ينكره إلاجاحد، ها هو يعترف بذلك عند وصفه للقرآن في قوله المشهور: "والله إن له لحلاوة. وإن عليه لطلاوة. وإن أعلاه لمثمر. وإن أسفله لمغدق. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه. وإنه ليحطم ما تحته وما يقول هذا بشر"[1]، وفي روح المعاني: "فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا باشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ومغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يُعلى وإنه ليحطم ما تحته"[2]. إن في قول ابن المغيرة السابق دليل على قدرة الوصول وبلغته.

إن الله يقرر في القرآن الكريم موقفا أصيلا يخص به الأمم السابقة واللاحقة، موقف يتلخص في الجحود تجاه آيات الله المبصرات؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[3]. وكأنه قانون إلهي يعم كل الأمم التي أنزلت فيهم الآيات بعد إبرام الحجة عليهم والدليل.

إن موقف الوليد السابق هو أكبر دليل على بلاغة وحجاجية القرآن وقدرته التأثيرية؛ فعلى الرغم من أن الوليد كانت لديه معطيات متواضعة في زمن بدء تنزل القرآن؛ فهو لا يمتلك أدوات القارئ والناقد المعاصر المبصر، فقد كان ذلك القول ينم عن قدرٍ من بلاغة القرآن وتأثيره في النفوس، فكيف بمن امتلك أدوات الفهم و الإبصار أليس حري به و أولى به أن يدرك تلك الحقيقة العظمى لحجاجية القرآن، فيكتشف وظائف الحجاج وصوره في الخطاب القرآني والنبوي، فالقرآن ما زال و لن يزال قويا ومستمرا الأثر في المخاطبين في كل العصور والدهور المتعاقبة إلى أن تقوم الساعة﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[4]، وذلك بما يملكه من مقومات الحجاج البالغ، الحجاج الذي وجد كل ذي لب بغيته ومطلبه، و يجد فيه العلماء المبرزون فيه مآربهم.

---

1 - عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، الجزء: 8، دار الفكر، بيروت، 1993، ص: 330.

2 - الآلوسي- روح المعاني: 1/ 29)

[3] النمل:14

[4] الأنعام: 67

ولما كان الحديث النبوي الشريف هو المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الذي هو حجة الله البالغة، أمر الله رسوله ﷺ كذلك في أثناء وعظه وتعليمه شرائع الإسلام أن يوصل هذا العلم والهدي والوعظ بـ (القول البليغ)، فالحديث "هو الشارح والمفصل والمبين لما أجمل في القرآن. فلا عجب بعد ذلك أن يقول الرسول ﷺ: "أوتيت القرآن ومثله معه"[1]. وهذا القول إن دل على شيء فإنما يدل – وبمنتهى الدقة والوضوح – على أن بلاغة خطابه ﷺ هي من بلاغة القرآن؛ لأن مصدرهما واحد هو الوحي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم:3- 4). وأنه بيان له"[2].

والقرآن الكريم والبيان النبوي صنوان لا يفترقان وفيهما من الحجة البالغة ما يغني من أراد عين الصوب ولب الحقيقة، ولقد جاء الأمر للرسول في أثناء الوعظ والبلاغ للناس بأن يأخذ بوسائل الحجاج والتاثير، حتى يكون خطابه بليغا بما يكفي للقيام بوظيفة البلاغ المبين﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[3]، وعليه فإن الإشارة إلى المثل القرآني البلاغية أو الحجاجية بعيدا عن النصوص النبوية لا يتأتى، فالنصوص النبوية تقوم على توجيه حجاجيتها لخدمة وتوضيح الطاقة الحجاجية للأمثال القرآنية.

وإن ما خُصّ به الرسول دون غيره من امتلاكه لجوامع الكلم إنما يشكل ركيزة ودعامة أساسية بين البيانين، فتلك (الجوامع) هي منحة من الله لنبيه، لا كما ذهب البعض إلى إرجاع هذه الخصوصية إلى الفطرة النقية والبيئة العربية[4]. وهذه المنحة جاءت لبيان القرآن. وبناء على ذلك فإنه من الصعوبة بمكان على أي دراسة تتناول القرآن الكريم أن تغض الطرف عن الحديث النبوي، فكلاهما سياق للآخر، وكلاهما متحد المصدر، وكلاهما متحد الوظيفة.

---

1 - أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل, , مؤسسة قرطبة, القاهرة, (د.ت)، رقم (17174)

2 - محمد بن الحسين (الشريف الرضي)، المجازات النبوية، تحقيق: مروان العطية، والدكتور محمد رضوان الديات، دمشق، الأولى، 1987، ج6 ص:7.

3 النساء: 63

4 - ينظر: إبراهيم العجلي- أضواء على البلاغة النبوية: 51-53.

والله سبحانه قد اختص نبيَّه محمدا ﷺ، دون الأنبياء جميعهم، بست خصال[1]، كان على رأسها (جوامع الكلم). ومن أجل ذلك فقد كان ﷺ لا يألو جهدا في سبيل أن يصل كلامه ﷺ إلى الناس بلفظه ومعناه؛ ليصل هديه ﷺ كاملاً غير منقوص، جاء في صحيح البخاري: "فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"[2]. وفي موضع آخر: "فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلِّغٍ يُبَلِّغُهُ لِمَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ" وجاء في المستدرك للحاكم: "نَضَّرَ اللهُ عَبْداً سَمِعَ مَقَالَتِيْ فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لاَ فِقْهَ لَهُ وَرُبَّ حَامِلُ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ثَلاَثًا"[3]. وجاء في السنن: (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيْهٍ وَرُبَّ حَامِلُ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)[4].

ويشمل قوله ﷺ "وَرُبَّ حَامِلُ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ" عالم الأصول وعالم اللغة، في الدرجة الأولى على مر العصور لما لهما من الأهمية الكبرى في توضيح المعاني مع الإشارة إلى الألفاظ لما يمتلكونه من أدوات تؤهلهم لذلك، ولا شك أن ذلك الحرص من الرسول ﷺ هو من أجل أن يصل خطابه إلى المخاطبين بلفظه ومعناه، ولا شك أن رواية الحديث بالمعنى دون اللفظ يؤثر سلبا على المتلقين، خاصة وأن المتلقين في هذا العصر عدتهم اللغة المعتمدة على اللفظ.

لقد يسر الله في العصر الحديث للناس سبل الدراسة والفحص والتمحيص وسلح العلماء بأدوات البحث العلمي التي تتناول النصوص بدراسة منهجية موضوعية بعيدة عن العاطفة التأثرية؛ وهذا العصر هو عصر العلم وأدواته، وهو خير شاهد على ذلك، فقد تناول الحديث النبوي الكثير من الدراسات الأصولية واللغوية، والبلاغية؛ فالرسول ﷺ بما أظهره الله على أمور الغيب المستقبلي،

---

[1] عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ". الحديث في صحيح مسلم رقم (521) وفي صحيح البخاري رقم (438)

2 - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري: الجامع الصحيح المختصر, مج: 2, تـ: د. مصطفى ديب البغا, دار ابن كثير, بيروت, 1987, ط: 3, ص: 620 رقم (1741)

3 - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين, مج: 1, تـ: مصطفى عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية, بيروت, 1990, ط: 1, ص: 162 رقم (294)

4 - محمد بن عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي, مج: 5, دار إحياء التراث العربي, بيروت, ص: 34 رقم (2656)

علم أن حديثه سيتلقاه الأفقه والأعلم باللغة، والذي سوف يتناوله بالبحث والفحص الدقيق بما يمتلكه من أدوات البحث التي أتاحها الله له ؛ لهذا كان اهتمامه وحرصه ﷺ على أن يصل حديثه كما سُمِعَ منه بلفظه ومعناه.

وهذا الحرص نلمسه أيضا في طريق الرواة في نقل حديثه ﷺ؛ فطريقتهم و قواعدهم في النقل تدل دلالة واضحة على حرصهم الشديد في وصول الحديث أو نقله بلفظه دون معناه، فقد كانوا ينقلون كل حركاته وسكناته وأوضاعه الجسمية في أثناء النقل عنه ﷺ لهذا كنا نجد في كلام رواة الحديث ذكر تفاصيل دقيقة تدل على دقة النقل, منها - على سبيل التمثيل لا الحصر- "وكان متكئا فجلس" "وأشار بيده إليهم" "فخرج يتهادى بين اثنين يجر ثوبه" "وضع يده على كتفي" و"وضع يديه على فخذيه" "وأشار بالإبهام والتي تليها وفرج بينهما قليلاً" وتأمل دقة النقل عنه ﷺ في عبارة "وفرجَّ بينهما قليلا". إن من يحرص على نقل هذه التفاصيل ذات الدقة المتناهية، بما فيها التلويح والتلميح؛ لا غرو أنه لن يغفل عن نقل الصريح من اللفظ.

كما أن ظاهرة تعدد الروايات للحديث الواحد لهي برهان واضح وخير شاهدٍ أيضا على تحري الدقة في نقل الحديث بألفاظه ومعانيه كما هي؛ ولو كان النقل بالمعنى دون اللفظ؛ لما تكلف الرواة هذا العناء والتعب في نقل الرواية بعدة صور، فهذا إذا دليل آخر على أن النقل كان باللفظ والمعنى، وهناك شواهد عديدة وكثيرة داخلية وخارجية ليس هنا مجال الحديث عنها ونكتفي بهذا التلميح[1].

ونخلص من هذا البحث إلى النتائج الآتية:

- تباين تعاريفات الحجاج وتنوعها يرجع إلى اختلاف أو تنوع المجالات التي كان يهتم بها دارسو الحجاج.

1 - ومن يريد المزيد يرجع إلى د. عودة خليل أبو عودة: بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف, ط: 2, دار البشير, عمان – الأردن, 1990, فقد أفرد لذلك (الفصل الثاني) من الباب الأول, ص: 83, فقد استرسل في التدليل على رواية الحديث باللفظ والمعنى, ومن يرجع له فسيجد مطلبه ومبتغاه. وكذلك الصورة الفنية في الحديث النبوي: ص: 37 وما بعدها.

- الحجاج الحق هو ما كان طبيعيا وتجنب التطرف أو التخصص، فهو ليس بالعاطفي البحت ولا البرهاني المحض، يخاطب في المتلقي إحساسه منطلقا منه إلى عقله، وأسلوبه اللغوي الفني ليس إلا وسيلة غايتها الإقناع أولا والإمتاع يأتي تبعا لها.

- يتميز الحجاج الطبيعي عن البرهان المنطقي أن نتائج الثاني حتمية أو صارمة، قد يكتفى فيها بدليل واحد، والحجاج الطبيعي لا محدودية لعدد الحجج التي يتألف منها، ويرتبط بالذات الإنسانية ارتباطا وثيقا، والعلاقات الحجاجية لا معنى لها بدون سياق تداولها الإنساني الخاص، وارتكازها على القيم والمعايير المتميزة بطبيعتها الظنية، والحجاج عرضة للتفنيد والمنازعة، ولا يحتاج إلى التصريح الذي هو أساس في البرهان.

- جاءت صور الحجاج في القرآن في صورة الكلام المنطوق، ومثالها محاجة خليل الله إبراهيم لقومه، وفي صورة النص المكتوب، فالقرآن الكريم يشكل نصا مكتوبا تتمثل تقنيات الإقناع عبر البنى الأسلوبية المقنعة فيه.

- مقصد القرآن للحجاج القدرة على الوصول المعتمد على الحجاج المؤثر المقنع، ويتبين في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ وقوله ﷻ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ فمجموع هذه النصوص القرآنية تظهر أن القرآن هو حجة الله عبر أسلوبه البياني، و بلاغته كفيلة بالتأثير والوصول.

- تفننت الألفاظ القرآنية الدالة على البعد الحجاجي في التناول القرآني وتنوعت بين التصريح بلفظ الحجة، وتضمين هذه الدلالة معان أخرى، كـ (الحكمة، وفصل الخطاب، والقول الفصل، والسلطان، والبرهان، والبصائر).

- إن مفهوم الحجاج قرآنيا واسع يشمل التقنيات والأساليب البيانية التي تهدف إلى إقناع المخاطب والتأثير فيه، ويشمل الجدل والمناظرة والبرهان، ويقوم على مقدمات يقينية ليخلص إلى نتائج يقينية أيضا.

- يختلف مفهوم الحجاج قرآنيا عن مفهوم الحجاج الطبيعي اختلافا جذريا، فالحجاج القرآني لا يقبل النتائج النسبية، ونتائج الحجاج فيه يقينة.

قائمة المصادر و المراجع

1. إبراهيم طه العجلي، أضواء على البلاغة النبوية، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة السعودية - الرياض، 2007، ط: 2.
2. أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل, مج: 4, مؤسسة قرطبة, القاهرة, (د.ت)
3. أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد بن حنبل, مؤسسة قرطبة, القاهرة (د.ت).
4. أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا (أبي الحسين)، مقاييس الغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، 1423/ 2002.
5. أحمد يوسف (دكتور)، الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن،2010.
6. إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب (أبو الحسين)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب، جامعة بعداد، 1967
7. جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، (د،ت).
8. حسان الباهي (دكتور) الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب، 2010.

9. الراغب الأصفهاني- المفردات، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، 2001، ط: 3.
10. رشيد الراضي- الحجاج و البرهان، الحجاج: مفهومه و مجالاته، الجزء:1
11. عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، 1993.
12. عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المشهور بـ (تفسير الثعالبي)، الجزء: 3، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، (د.ت)
13. عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (أبو البركات)، تفسير النسفى، تحقيق: الشيخ مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت، 2005.
14. محمد السيد سليمان العبد (دكتور) النص الحجاجي العربي- دراسة في وسائل الحجاج، الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء: 4
15. محمد الطاهر بن عاشور- التحرير والتنوير، ، دار سحنون- تونس،1997، الطبعة التونسية.
16. محمد بن الحسين (الشريف الرضي)، المجازات النبوية، الجزء: 6، تحقيق: مروان العطية، والدكتور محمد رضوان الديات، دمشق، 1987، ط1
17. محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة، بيروت –لبنان، /1957م، ط1.
18. محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك للحاكم، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت ، 1411 - 1990، ط: 1.
19. محمد بن عمر بن عبد العزيز إبراهيم الأندلسي (أبو بكر)، كتاب الأفعال، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 2002، ط: 1
20. محمد بن عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي, دار إحياء التراث العربي, بيروت, (د.ت).
21. محمد بن عيسى الترمذي السلمي: الجامع الصحيح سنن الترمذي, مج: 5, دار إحياء التراث العربي, بيروت

22. محمد بن يوسف (الشهير بأبي حيان الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، الجزء: 7، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد
23. محمد بن يوسف (الشهير بأبي حيان الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد معوض، ود.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، 1422 2001، ط: 1.
24. محمود الألوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المشهور بـ (روح المعاني - الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(د.ت).
25. محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (أبو القاسم)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت)
26. معوض، شارك في التحقيق د.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، 1422 2001، ط: